انطوان وكليوباطرة (١

نظر للاب ر. موترد اليسوعي

ولّى الرومان عليهم في اواسط القرن الاوّل قبل المسيح ثلاثة حكّام وبعد عشر سنوات اذعنوا الى كلمة حاكم واحد دُعي حاهلًا او بالأحرى مقدماً وبقي الامر على هذا المنوال منذ عهد اغوسطوس. فدبّ روح الطمع في صدر اثنين من أولئك الولاة وهما أكتافيوس الذي تبنّاهُ يوليوس قيصر وانطوان القائد ذاك الذي اباح لهُ قيصر بغوامض اسراره. فنشأت بين الاثنين مغايرة سالت لها الدماء كالانهار. وقد وضع في ايامنا هذه العالم ج. فيريرو في المجلّد الرابع من مؤلّفهِ « في عظمة وانحطاط رومة » بحثاً ضمّنهُ اخبار تلك المشاحنة ودعاهُ « بتاريخ انطوان وكليوباطرة ». فمن عنوانهِ يُستدلّ ما كان للشرق عموماً وامصر وملكتها خاصّةً من اليد في الامور التي جرت من عام ٤١ الى عام ٣١ قبل المسيح. واما العالم فيريرو فانهُ درس التاريخ درس رجل عالم بالابحاث الاقتصاديّة ومطّلع على ما ينتاب الانسان والامم من الاهواء والتقلّبات. ولهذا أتى بحثهُ جامعاً لشتات الفوائد مناقضاً في بعض فصولهِ لما كنّا نظنهُ الى الآن عين الحق. فرأينا والحالة هذه ان نتحف القرّاء بخلاصة ابحاثهِ في هذا الصدد

قال في الصفحة السادسة من كتابهِ: كانت مصر في مقدّمة العالم اقتصاداً وعلماً زاهرةً بالزراعة حافلةً بالصنائع كثيرة الاتجار. شُيّدت فيها المدارس الشهيرة وأُتقنت فيها الفنون ولقد خصّها الله بالخصب وعُرف سكّانها بالجدّ فاعملوا فيها ايدي المهارة. فمنها كان يؤخذ كتّان أشرعة جميع السفن الماخرة عباب البحار وكانت غلّاتها تقوم بعوز اهلها وبحاجات الامم المجاورة لها. وما من شعب على شواطئ البحر المتوسط جارى المصريين في الصناعة فاشتهر الاسكندريّون بحياكة الانسجة الثمينة وتركيب الطيوب وصبّ

---

١) G. FERRERO: Grandeur et décadence de Rome. — IV. ANTOINE ET CLÉOPATRE. Traduit de l'italien par M. U. Mengin. — *Paris, Plon - Nourrit et C^ie^*. 3^e^ édition, 1906.

الزجاج وصقل البردي . وانما تضرب صفحاً من اشياء كثيرة كان التجار يذهبون بها الى كل صوب ويبيعونها فتدر عليهم بالارباح . وجمعت مدارسها انواع العلوم فأمها الطلبة من كل فج حتى من البلاد اليونانية للاطلاع على اسرار الطب والفلك والبيان وكانت تلك المعاهد العلمية اواخذ على نفقة الحكومة . ولم تكتفِ مصر ببيع ما يخرج من معاملها الصناعية وباستجلاب الذهب والفضة والنحاس وغيره من المعادن بل انها استأثرت بمعظم تجارة الهند والشرق الاقصى

ولكن لكل امرٍ آفة وآفة مصر إذ ذاك كانت حالتها السياسية والاجتماعية فان الانانية تسربت بين طبقات الشعب وضربت على كل عاطفة شريفة فاصبح اهل البلاد لا تزاحة عندهم ولا كلمة تجمعهم الى ما فيه الخير العام ولم يكن ارباب الامور باعظم درايةً واشدّ انفة من غيرهم فما كانوا يثبتون على رأيٍ ولا يهبون إلا بالدينار وكل ما سواهُ يبذونهُ ظهريًا فاضحوا ولا جيش يحميهم من سورة الاجانب ويكون لهم نصيرًا اذا ما شُنَّت عليهم الغارات . كثرت اذ ذاك رجال العلوم والعقول في مصر ولكنهم لم يعتدوا الخناصر على القيام بوجه رومة بل حاولوا ردَّها على الاعقاب بالدسائس والمكائد الخفية حينما كانت المناضلة عن حقوقهم فرضاً لهم لازمًا لان مصر في تلك الايام كانت المملكة الوحيدة التي لم تكن امتدَّت اليها ايدي الرومانيين انما غناها وفراغ خزينتهم لستلفتا اليها انظار العداة فلا غروَ انها تصبح عن قربٍ فريسة طمعهم

ولم تفت هذه الامور ادراك الملكة كليوباطرة فعزمت على ابرام محالفة مع رومة وذلك باقترانها بيوليوس قيصر انما مساعيها ذهبت ادراج الرياح فانحازت الى القائد انطوان ورغبت بان تكون زوجةً له ظنًا منها انهُ اذا ما قام معها انطوان بعبء المُلك قامت جيوش رومة بالدفاع عن مصر وبقيت البلاد على استقلالها وصارت على أمن من غوائل الدهر . فأجاب القائد الى رغبة الملكة . الّا انهُ لم يتمّ الامر على ما عهدناهُ الى الآن تبعًا لرواية المؤرخين . فقد اثبت ج . فيريرو ان انطوان تردَّد حينًا قبل الاقدام على هذا العمل الخطير لعلمه ان أمتهُ وجيوشهُ سينظرون الى هذا الزواج بعين الاستياء ويعدونهُ خيانةً وحماقةً . غير ان الحاجة الجأتهُ الّا يحفل بهذه الوساوس لانهُ كان صفر اليدين من الدراهم ولم يبقَ له ولا لمن شاطرهُ السلطة ادنى

مهابة لدى القاصي والداني ولهذا عزم الولاة الثلاثة على فتح بلاد الفرس استرجاعاً لسطوتهم واستدراراً للاموال. وكان يوليوس قيصر سبق فأشار الى هذه الوسيلة ووضع خطةً للحرب ذكر فيها مفصلاً عدد كتائب الجيش والطرق التي تمرّ عليها جحافل رومة. فلا جرم ان خطةً كهذه رسمها اعظم قائد تلك العصور كانت ضامناً وثيقاً للنجاح. انما القيام بها يستغرق مبالغ طائلة لاعداد المِيرة وتهيئة عُدَد الحرب ووظائف الجنود وكلّ ذلك تكفّلت به الملكة كليوباطرة على شرط ان يتخذها انطوان زوجةً له

ولم يمكث انطوان في مصر إلّا الزمن اليسير ثمّ رحل عنها متنيّاً ثلاث سنوات وذلك لردّ غارات الفرس لانهم زحفوا من مدينة كتيزيفون أبان فصل ربيع عام ٤٠ قبل المسيح واستولوا على سوريّة وفلسطين وقيليقية وفينيقية ما عدا صور. وفي تلك الأيام اجتمع مرّتين مع قوّاد جيوش رومة واتفق معهم على القيام ببعض مهامّ حربيّة. وعند منتهى السنة عينها تقاسم واكتافيوس العالم الرومانيّ فاشارت عليه كليوباطرة ان يؤثر اقطار الشرق الغنيّة ويترك لقرنه ايطاليا وما يجاورها من الامصار الاوربيّة. وبعدما استولى على أورشليم وسلّمها لهيرودوس سنة ٣٧ قبل المسيح تأهّب للزحف على الاعداء. ولكنّهُ سافر فجأةً الى جزيرة كورفو وما كاد يطأ ارضها حتى ارسل زوجتهُ اكتافية اخت اكتافيوس واولادها الى رومة واوعز الى احد اصدقائه ان يذهب الى كليوباطرة ويدعوها للاقاته الى سوريّة فتمّ الامر على رغبته. وفي غزّة عام ٣٦ أُقيمت الافراح في مدينة انطاكية وعُقد للقائد الروماني على ملكة مصر. فأهدى انطوان لزوجته جزيرة قبرس وبعض سواحل فينيقية ومغارس نخل اريحا واقطعها عدّة غابات في جزيرة كريت وبلاد قيليقية. واما كليوباطرة فانّها فتحت امامهُ خزائن مصر ليأخذ منها ما يقوم بنفقات الحرب. وجرت حفلة الزواج على مقتضى عادات ملوك مصر غير ان انطوان حافظ ابداً على لقبه فعُرف دائماً بالوالي الروماني. ولم يتظاهر امام شعبه حتى في تلك الأيام انهُ طلّق اكتافية واقترن بامرأة اجنبية. وخلاصة القول ان انطوان وكليوباطرة عقدا هذا الزواج لغايات شخصيّة واضمر كلٌّ منهما ان يستخدم الآخر لبلوغ اربه دون ان يقابلهُ بنفع يُذكر

زحف انطوان في مائة الف جنديّ وذلك في شهر حزيران سنة ٣٦ قبل المسيح وعسكر على مقربة من مدينة اوزروم ثمّ دارت رحى الحرب بينهُ وبين قاطني البلاد

احلاف الفرس فخامت فرسان الاعداء عن الايقاع به لوعورة الطرق وكثرة الجبال . فلمَّا هبط الجيش إلى السهول وحاصر القائد مدينة فراسيه قامت العقبات بوجهه واستولى العدوّ على ما كان عنده من آلات الحرب واما هو فانهُ عجز عن اخذ المدينة عنوةً لكنَّهُ حفظ جنوده سالمين ورجع بهم القهقرى مسافة ٥٠٠ كيلومتر

فبذلت كليوباطرة جهدها لتجني ثمرة حبوط زوجها لانها علمت حقّ العلم انهُ لو كان فاز بالغلبة على الفرس ودوَّخ بلادهم لأعرض عن محالفة مصر . فرأت اذن ان لا بدَّ من اعمال الفكرة لابعاد خطر كهذا في المستقبل ولصدّ القائد عن الرجوع الى محاربة الاعداء ولصرف همَّته الى اقامة مملكة مصريَّة عظيمة الشأن رفيعة الكلمة معزَّزة لا تنالها يد ولا تنتابها الغوائل . فاخذت تزيّن لهُ فتح بلاد ارمينية وتحضُّهُ عليه لما يكون وراءهُ من الفوائد فاذعن لمشورتها وخرج بجيشه في ربيع سنة ٣٥ فكان النصر اليفهُ . ولدى رجوعه الى الاسكندريَّة أقيمت الاعياد احتفاء به واجلالًا لهُ وخُتمت بحفلة انست كلَّ ما تقدَّمها . فنُصبت لانطوان ولكليوباطرة واولادهما اريكة من الفضة على مرأى من الشعب فلمَّا ارتقاها نادى بكليوباطرة وقيصريون ابنها وابن يوليوس قيصر ملكي الملوك ثمَّ قسم بينهما وبين اولاده الثلاثة الذين رُزقهم من كليوباطرة مملكة الاسكندر وبعض الاقاليم الرومانيَّة . فأتى الامر مجحفًا بحقوق رومة ومناقضًا لعظمة سلطانها ومع ذلك لم يزل القائد مثابرًا على خطَّته القديمة فكان يكتب الى مجلس أمته ويتظاهر انهُ احد ولاة الرومانيين . ولم يجاهر بطلاقه لاكتافية بل كان يُوهم انهُ يشاطر كليوباطرة السلطة العامَّة لا غير وهو يثق بمصادقة بني جلدته على ما اقطع لكليوباطرة واولادها عادًّا كلّ ذلك كنظام جديد لاقاليم الشرق

فلا عجب اذا كانت هذه الحوادث اقلقت خواطر شعب ايطالية . ولهذا نهض حينئذٍ اكتافيوس وصمَّم العزم على مناجزة قرنهِ لانهُ اذا ما استولى انطوان على مملكة الفرس واضاف تحتها واموالها الى ما جمعهُ من الذهب والفضَّة في مصر وارمينية اصبح استقلال رومة في خطر مبين . وكان اكتافيوس فيما سبق منهمكًا باللذاذ غير ان هول المقام انهضهُ من رقدته وخوَّلهُ حزمًا لم يكن يعهدهُ من نفسه فانتصب مدافعًا عن حقوق البلاد وصوَّب سهم الملامة على اعمال خصمه وآلى ألَّا يدع حرمة الشرائع تُنتهك ويلحق مجد الشعب الروماني مثابة ما وسأل اخيرًا مجلس الشيوخ ان يعطيهُ قسمًا من مصر لانهُ على زعمه

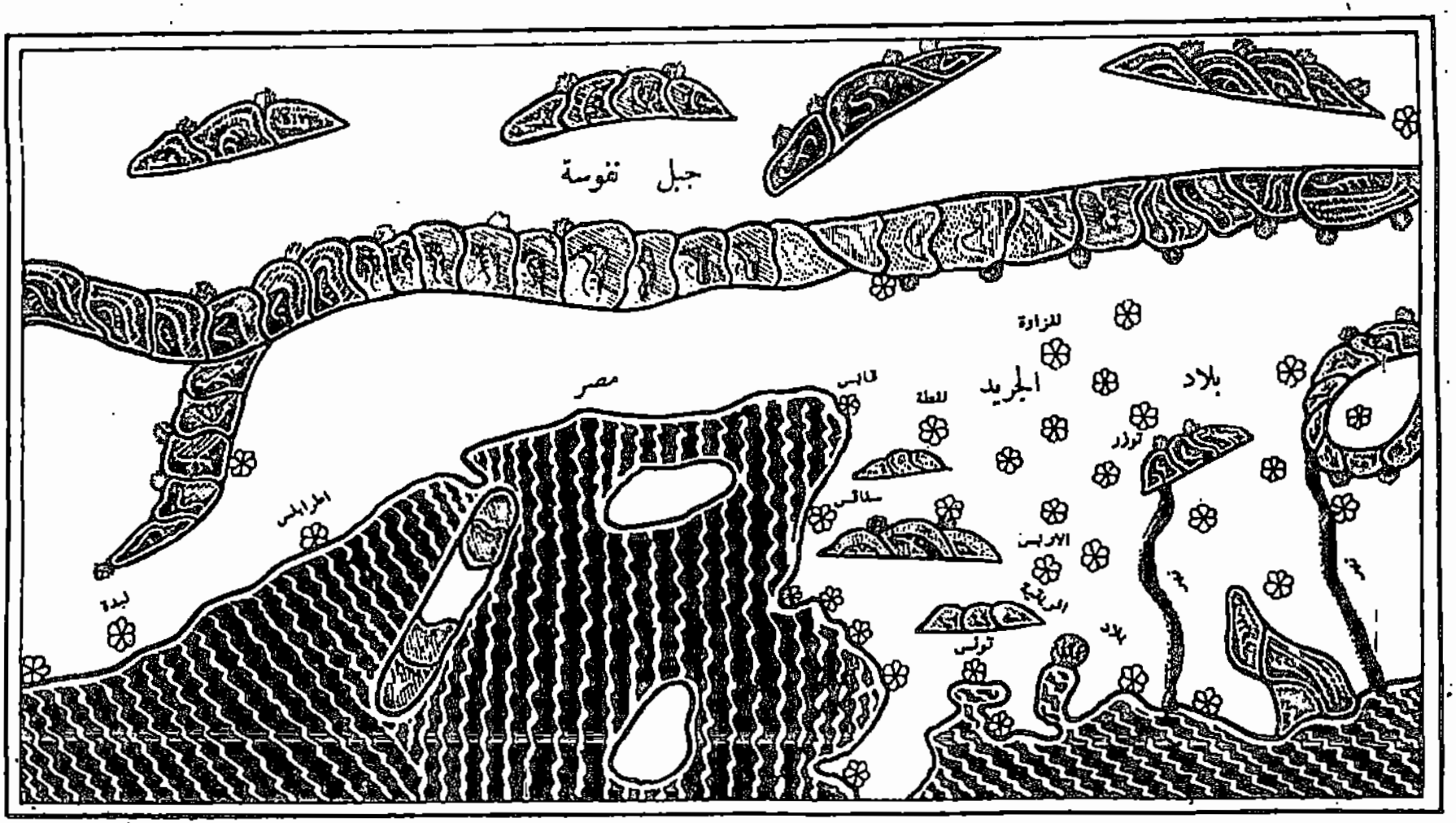

خريطة للشريف الادريسيّ

اصبحت لقليباً رومانيًا. فعضده الرأي العام عازيًا الى كليوباطرة النيَّة بالاستيلاء على ايطالية وروما

فحاولت ملكة مصر جهدَ الاستطاعة في سبيل الدفاع عن بلادها ولذا امرت بجمع الاقوات والشباب وباحضار عدَّة الحرب ثمَّ اخذت من الخزينة عشرين الف مثقال وهو مبلغ يوازي في أيامنا نحو مئة مليون من الفرنكات وركبت متن البحر وذهبت بلسطول ضمَّ مئتي سفينة ولحقت بزوجها القيم اوانئذٍ في مدينة افسوس وكان ذلك في اواخر سنة ٣٣ قبل المسيح

وكان عامل السلم وعامل الحرب يتنازعان القائد انطوان لان كثيرين من اصحابه خرجوا من رومة واسرعوا للاقاته وكلهم رغبة بالصلح وسكينة البلاد انَّما خافت كليوباطرة ان يتحوَّل الوئام بين الخصمين الى وقرٍ ثقيل عليها فصرفت جلَّ العناية لتحمل زوجها على ان يجاهر بطلاقه لاكتافية فافلحت. وكان انطوان إذ ذاك يفكر في امر المدافعة عن اقاليمه ففرَّق جنوده في عدد عديد من الامصار ولم يجمعها جيشًا عرمرمًا يسير به لمصادمة كتائب قرنه ولدى مفاجأة اكتافيوس له تحصَّن في معسكره بأكسيوم وفي تلك الاثناء علمت كليوباطرة انَّهُ اذا ما نال زوجها اكليل الظفر فسيوم مدينة رومة لاصلاح الخلل وارجاع الامن بين الشعب وتوطيد دعائم السلم في المملكة وبذلك يكون خراب مصر فاقنعتهُ بالاياب معها الى الاسكندريَّة دون ان يناجز خصمهُ القتال إلَّا في البحر فتكون المعركة بين الاسطولين كستر يحجب هربها. غير ان بعض اماثل الرومانيين من اصحاب انطوان اطلعوا على هذا القصد فقاوموهُ وادَّى بهم الامر الى مخاصمات عنيفة مع كليوباطرة حتى انَّ القائد خاف ان الملكة تغضب عليه فتسلهُ. ولمَّا اشتبكت المعركة بين الاسطولين هبَّت ريح شماليَّة وللحال اقلعت كليوباطرة بسفنها ومرَّت بجرأة بين مراكب المتقاتلين وتوجَّهت نحو بلاد البيليونز وعندئذٍ ركب انطوان مركبًا ذا خمسة صفوف من المجاذيف ولحق بها

وتردَّد اكتافيوس في شأن مطاردته وبذلك خوَّلهُ وقتًا ثمينًا ليتأهَّب به للدفاع لكنَّ انطوان لم يثبت على خطَّة واحدة بل كان يُبطل اليوم ما امر به الامس. ولما اقترب اكتافيوس بجيشه من الاسكندريَّة اخذت كليوباطرة تملل النفس بحفظ مصر تحت سلطتها اذا ما خانت زوجها واسلمتهُ الى عدوِّه اما هو فانهُ يئس الحياة وانتحر. وبعد

ايام قلائل تحققت الملكة ان اكتافيوس سيأخذها اسيرةً ويعرضها يوم ولوجه رومة لمرأى الشعب وسخريته فآثرت الموت على الذل. فوجدها اعوانها يوماً مضجعةً على سرير ثمين وقد تزينت بحلاها ولبست أفخر ثيابها وهي جثة بلا حراك وعن يمينها غلام قد قضى نحبهُ وعن يسارها غلام ثانٍ في آخر رمق من الحياة

وضمَّ اكتافيوس مصر الى اقاليم رومة ولكنهُ تحاشى كأنما يذلل كبر المصريين فتظاهر انهُ الملك الجديد على البلاد والخلف الشرعيّ لسلالةٍ قد انقرضت . واقام نائباً عنهُ ليحكم بين الشعب وامرهُ ان يتخلق ما استطاع باخلاق من يدير شؤونهم . لكنما نزلت بثروة مصر نازلة كادت تودي بها فتُرِّم كلّ فرد من السكان سُدس مالهِ وأُكرهَ الاغنياء على دفع مبالغ عظيمة وأُخذت آنية الذهب والفضة المحفوظة في المتاحف وضُربت نقوداً وقبض اكتافيوس على خزائن ملوك مصر واقتسمها مع اصحابهِ واعوانهِ ثمَّ أقل راجعاً الى رومة وسكتت الارض امامهُ . فسبحان من يدوم ملكهُ لا إله سواهُ

المَرْيَمانيَّة أو البَرْبرانيَّة

لحضرة الاب انستاس الكرمليّ

١ تمهيد

اذا نكّب المرء عن جوادّ الحق الرَّحبات . اخذ للحال في وادي جَدَبات . او رَقي من فوره نَقبًا كُلُّهُ عَقَبات . وهيهات يصل الى ما يقصدهُ من الغاية المطلوبة والف مرَّة هيهات . ولاسيَّما اذا كان يصل السَّير بالسُّرى في مثل هذه المهايع الكاذبة . بعيدًا عن الطُّرُق اللاحبة

فلقد نشأ في حجر النصرانية بدع مختلفة متباعدة بعضها عن بعض او متدانية بعضها من بعض . في انحاء شتى من اقطار الارض . فتضاربت وتحاربت في ما بينها . فضعُفَ شيئها فقوَّى ذلك زَيْنَها . ومات منها ما مات . وبقي منها الصحيح او ما لشبههُ ببعض الصفات . امَّا ما كان منهُ بعيدًا عن الحقّ . بُعْدَ الرتق عن الفتق . فقد زال وانقرض . ولم يبقَ منهُ أثر جوهر او عَرَض . ومما يدخل هذا الباب بدعةٌ عبدت مريم العذراء عبادة